تتمحور مجموعة الشارع الاصفر حول ثلاثة محاور:

١ ــ القمع الاسرائيلي ونقاط تمفصل المقاومة الشعبية .

٢ ــ الارض وعلاقة الانسان بها .

٣ ــ البعد الانساني للفعل التاريخي .

هذه المحاور الثلاثة تندمج داخل العمل الفني . وتأخذ لنفسها اطارا واحدا هو الارض الفلسطينية وضرورة البقاء فيها .

١ ــ القمع الاسرائيلي ونقاط تمفصل المقاومة الشعبية :

لعل قصة « الشارع الاصفر » وهي اولى قصص المجموعة تشكل وثيقة اتهام كاملة لاشكال القمع الوحشي الذي يمارس ضد عرب الارض المحتلة . وتوفيق فياض يضع نفسه في حيفا « في الغيتو العربي في حيفا » حيث يصل القمع الى درجة جنونية . فالشرطة التي تعتقل امين سعد في تظاهرة « نظمها شلة من الزعران العرب » تمارس معه أبشع انواع التنكيل والبطش والارهاب . الانسان يتحول الى خرقة تتكوم في بئر عميقة لا يصلها شيء بالحياة . والسلطة تقمعه في حياته الشخصية عبر الضغط المادي على خطيبته وداد كي تتركه . ان ثقل الموضوع كله ينصب على ناحيتين : من **جهة اولى** هناك الوجهاء العرب في حيفا الذين باعوه وباعوا أنفسهم للمحتل . ومن **جهة اخرى** هناك ضراوة القمع الذي يتعرض له المناضل في الارض المحتلة. وفياض حين يحاول تصوير الجانب الاول من الموضوع فان بطله امين سعد يكتفي بالتقيؤ على المارة من شرفة منزله ، او هو يقوم باشعال النار حيث يرقص وجهاء العرب ليلة رأس السنة . اما حين تتعرض ريشته للجانب الثاني من الموضوع ، فان عنف القمع يصل به الى وصفه بشكل سوريالي « قبل لحظات معدودة فقط ، كان يعلق من كعبيه في حانوت قصاب وسط سوق عكا ... وقد شرع القصاب في تقطيع اوصاله وهو لا يزال حيا ، دون ان يستطيع الكلام ، كان ينظر اليه وهو يقطع يديه على الجذع ، ويضع قطعها على الطاولة ! ثم ما لبث ان قطع رأسه ووضعه الى جانب يديه !!... » القمع يصل حافة الجنون وتصويره بشكل كلاسيكي قد يوقع الفنان في تبسيط الموضوع او في التقليل من أثره . من هنا يقفز الكاتب الى الوصف غير الواقعي ، ليصور واقعا معاشا . فسوريالية هذا المقطع ، ــ الغرق في كابوس مرعب ــ هو واقع يومي يعيشه الانسان العربي المسحوق تحت احذية الغزاة . لكن القصة لا تتوقف عند حدود وصف الواقع ، انها تبحث لنفسها عن المخرج . وهنالك بالفعل مخرج سهل الهجرة « انك تعيش هنا في قبر ! شعبك كله هنا يعيش في قبر ، مظلم ، قاتم ! وطنك هذا الذي لك،وليس لك،لماذا لا تهجره ؟ لماذا!؟»جواب امين سعد على هذا التساؤل يأخذه من اطفال شعبه من اغانيهم : « لاني اذا هجرتك يوما تهجرني روحي واذا نسيتك ينساني الفرح » .

اما اليأس من النضال ، والانزواء خارج حلبة القتال ضد المحتل ، فان اصوات المتظاهرين وهتافاتهم تصير حركة فعل تاريخي تخرج الانسان من يأسه الفردي ، وتحيله الى لحن في اغنية نضال جماعية .

اذا كان القمع الاسرائيلي يظهر في قصة « الشارع الاصفر » واضحا فانه في بقية قصص المجموعة ، يصبح رمزا يفتك بالارض نفسها . ففي قصة « الراعي حمدان » يتحول المحتل الى ذئاب جائعة ، تلتهم الارض والاغنام التي ترعى عليها ، وهو في قصة « أم الخير » يصبح حية سامة تقوم بعملية قتل جماعية لعائلة بكاملها وتحيل اهالي القرية الى جموع من النازحين هربا من الداء الذي ينبت قروحا في جسد ام الخير ، وهو في قصة « ليلة القدر » يتحول الى مرض يفتك بعيون الصبية الجميلة العينين . وهو في قصة « الكلب سمور » جندي انكليزي او صهيوني يفتك بأهالي القرى . القمع هو الكابوس الذي تعيش مجموعة « الشارع الاصفر » في ظلاله . وهذا القمع يتمفصل حول جسد الارض . حول القرية الفلسطينية . انه السرطان الذي يدخل جسد القرية ولا يستطيع احد مقاومته . وحين يأخذ القمع شكلا مدينيا « حيفا » فانه يصبح في قسوته قمعا لا معقولا . يفصل الرأس عن الجسد ، يبيع الاعضاء الاخرى في حانوت قصاب .

غير ان الرد على هذا القمع يأخذ نقطتي ارتكاز :

أ ــ تعلق الانسان بأرضه . هذا التعلق الذي يصل الى حدود بقاء الانسان وحيدا امام قروح ام الخير التي يتحول جسدها الى شجرة تشفي قروح الناس الذين بقوا معها الى النهاية .